زيارة الأحبة عند الشعراء

الحياة كفاح، هذا ما يقول به كثير من الناس، ويضربون الأمثلة على ذلك ليعبروا عن وجهة نظرهم، ويؤكدوها. ويذكرون أن الإنسان إذا أراد أن يأكل، فعليه أن يبحث عن طعامه بشتى الطرق ليجد ما يسد به رمقه، وإن أراد أن يلبس عليه أن يكدّ حتى يجد ما يلبسه، وحتى في المسائل العاطفية إذا أراد أن يجد له محبوبة، كان عليه أن يسعى ليل نهار بحثاً عنها، بل عليه أيضاً أن يتسلح إن كان من أهل العصور القديمة، بالسيف والنار، والحديد والظلام ليحصل على تلك الحبيبة ليتآنس معها. وقد سبقه أناس كثيرون في هذا الكفاح، وبذلوا الكثير في سبيل تحقيق غاياتهم ومن هؤلاء الشاعر الكبير أبو الطيب المتنبي. فهو رغم سعة حكمته، وجسارته في الحروب، وعلمه الغزير في كل فن، لم يجد بداً من أن يكافح للوصول إلى حبيبته، وكان يقول لنفسه:

كم زورة لك في الأعراب خافية

أدهى وقد رقدوا من زورة الذيب

أزورهم وسواد الليل يشفع لي

وأنثني وبياض الصبح يغري بي

فالمتنبي الذي خاض غمار الفلوات، وتوغل في ميادين القتال مع سيف الدولة غير هيّاب ولا وجل خشي زيارة الحبيبة، فكان يذهب إليها متخفياً، وبعد هبوط الظلام، ورقاد أهل الحي، فالمتنبي على إقدامه وشجاعته في الحروب، لم يستطع أن يزور محبوبته في وضح النهار، أو غير متخفّ بل اضطر إلى الذهاب إليها ليلاً متلصصاً وربما كانت فرائصه ترتعد خوفاً من أن يضبط. وكما كانت زورة الذئب لأعراب البادية في الخفاء، كانت زيارة المتنبي لمحبوبته أدعى لذلك الخفاء من زورة الذئب الذي كان يزور الأحياء العربية بغرض التهام الأطفال في غفلة من ذويهم. أما المتنبي وعنترة وامرؤ القيس وعمر بن أبي ربيعة وغيرهم، فقد كانت لهم مآرب أخرى من تلك الزيارات فهذا عنترة ينبئنا عن زيارته التي أرادها أن تكون زيارة ناجحة، فقال:

فبعثت جاريتي فقلت لها اذهبي

وتجسّسِي أخبارها لي واعلمي

قالت رأيت من الأعادي غِرةً
والشاة ممكنة لمن هو مرتمي

فمن كان يظن أن عنترة سيخاف ويسعى إلى الاختفاء وراء جاريته؟ ولعله جعلها تقسم له بأنها لن تفشي سره، وستذهب وتتجسس له، وربما تأتي إليه بالخبر اليقين، وتقول له سراً في نفسها: «نعم، اذهب إليها يا جبان» ثم تتركه يصطاد في الماء العكر.

ولا يمكن للمرء أن يصدق أن عنترة سيخاف، وأنه جبان في ميدان الحب، رغم شجاعته في ساحة الحرب. إن عنترة لم يخرج عن كونه إنساناً يخشى على صاحبته حديث الناس فيغدو جباناً أمام ألسنة الناس التي لا ترحم ولن ترحم سمعة حبيبته إذا ما اكتشف الأمر.

وكان المحبون على أيام عنترة يذهبون لزيارة حبيباتهم وهم مدججون بالسلاح، فهم يحملون الزرد والسيوف الصقيلة، والرماح الطويلة، ثم بعد ذلك قد يأخذ المحب معه بعض الحراس إن أمكن. ونجد أن امرأ القيس مثلاً، كان من أولئك الذين يصفون حالتهم هذه عند ذهابهم إلى المحبوبة بقوله:

سموتُ إليها بعدما نام أهلها
سُموّ حباب الماء حالاً على حال

فجبنه واضح من بداية المغامرة لأنه انتظر حتى نام أهلها، ثم سار خفية إليها كأنه فقاقيع الماء ترتفع وتهبط، وتزحف وتسبح دون أن تحدث أي صوت. ولا شك أن فرائصه كانت ترتعد وترتجف وهو يطلع التلال، أو ينزل الوهاد ليصل إليها. ومن يدري فلربما كان هناك غيره من المحبين الذين وقعوا في حب فتيات أخريات في نفس الحي، وكانوا يفعلون فعله وهم خائفون. وربما وقع أحدهم على الآخر في ذلك الظلام الدامس فأخذ يصيح: «الحقوني، أنقذوني، هذا ليس أنا!» والذي يحيرني في تلك الزيارات أين كانت كلاب الحي، وهل نبحت أم لم تنبح، وهل أيقظت أهل الحي من الرجال، أم كانوا هم أنفسهم في زيارات مماثلة.

والجبان لا يمكن بالطبع أن يعترف بجبنه وهذا ما فعله امرؤ القيس حين ضبط متلبساً بالجريمة. وذلك بعد أن عثر على محبوبته في خبائها، وربما دلته عليه بعطر خاص تستعمله دون غيرها. أو ربما بمعزة تمأمئ طوال الليل، أو تضرب بأقدامها في إناء من الصفيح كان فيه أكلها فأخذت ترفسه بأقدامها الجرداء، وحوافرها الحادة، من حين لآخر طالبة المزيد من الطعام، وهي علامة بين الزائر والمحبوبة ليستدل على خبائها في تلك الليلة المظلمة، وفي مثل هذا الجو يصل امرؤ القيس، ويسهر

مع معشوقته ولسان حالهما أخرس لا ينطق بكلمة خوفاً من أن تسمع الكلمات الخافتة في تلك الصحراء الهادئة التي ليس فيها مكيفات مزعجة، أو تلفزيونات تصرخ بملء صوتها، أو أجهزة إذاعة تتمشدق بكل اللغات، وخرير التدخلات. كان هدوء الصحراء شاملاً مطبقاً كأنك في غرفة امتحانات شهادة من الشهادات.

وفي تلك الغرفة أو الخباء يخرج امرؤ القيس حين تنبهه حبيبته بأن الخطر قد اقترب، وأن عليه أن يلم سلاحه من سيف ورمح وزرد ثقيل وخناجر وسكاكين لكي ينجو بجلده. وتضيق به الحال، ويرتجف من أعلى رأسه إلى أخمص قدميه، ويتلعثم، ويكاد يبكي، ولكنه لا يجد الدموع، وحبيبته تقول له: «انج بنفسك قبل أن يأتيك بعلي فيقتلك». ونسي امرؤ القيس أن ذلك البعل مثله في الجبن والخوف. وعندما يتذكر أنهما مثيلان يقول لها:

أيقتلني والمشرفيُّ مضاجعي

ومسنونةٌ زرقٌ كأنياب أَغْوال

والواقع فإن رمحه بسيط عادي، ولكن في نظره كان ذلك الرمح قد أتى من العالم الخرافي الذي فيه الحديد أزرق، وفيه رأس الرمح المسنون أي الذي به

أسنان كثيرة، وأنه كأنياب الأغوال التي لم يرها امرؤ القيس في حياته إلا ما سمعه من حكايات في الليل من جدته لأمه.

ثم ما يلبث شاعرنا الكندي أن يجمع أسلحة الدمار الشامل التي في يديه وكتفه وجسده، والمحمولة جواً على رأسه في شكل خوذة ويفر متلصصاً، كما جاء متلصصاً لينضم إلى سائر الجبناء المحبين الذين كانوا قد هرولوا مصعّدين في الصحراء لتبتلعهم في ظلمائها وتعود الديار خفيفة الظل، مرحة مبهورة الأنفاس تنتظر مغامرات الليلة القادمة في سلسلات لم يعرف مثلها تلفاز العصر الحديث.

ومما لا شك فيه أن زيارات امرئ القيس كانت من أكثر الزيارات التي تحمل تفاصيل مذهلة عما يدور في مثل تلك الزيارات والمغامرات. فهو بالإضافة إلى ذكر وسائل الحيطة والحذر التي يتخذها لم ينسَ أن يوضح الحالات النفسية التي كان يمر بها كل من العاشقين. وتعجبني تلك التفاصيل كثيراً لأنه يبدو فيها صادقاً، وفي نفس الوقت جذاباً في فعله وفي سرده لها. ولم يوفق بطلنا عنترة في سرد أحداث مغامرته الغرامية التي أوضحها امرؤ القيس صراحة في أكثر من قصيدة. وتفيدنا مثل هذه المغامرات في المقارنة بين

فارس همه القتل والقتال، وترك أمور الغرام جانباً إلا ما كان منها للترفيه عن النفس، ثم المضي قُدماً في عمله الرسمي مع إبقاء حب عبلة فقط في ذاكرته ومن آخر كامرئ القيس الذي كان كما يقولون زير نساء كالمهلهل. وكان ذلك هو شغله الشاغل. ويهمنا في هذه الزيارة همه الأول والأخير كما كان يفعل امرؤ القيس. ومما لا ريب فيه أن امرأ القيس كان له تأثير كبير على عمر بن أبي ربيعة. وسنبقى بعض الوقت مع امرئ القيس في زيارة له لمقارنته مع معاصره عنترة. أما ابن أبي ربيعة فسنتركه وشأنه هذه المرة.

فامرؤ القيس بعد أن سما إلى دار حبيبته وكأنه فقاقيع ماء قال لنا، وقد وقف أمامها في الخباء، ولم تكن تتوقعه هذه المرة:

فقالت سباك الله إنك فاضحي

ألست ترى السُمار والناس أحوالي

فقلت يمين الله أبرح قاعدا

ولو قطعوا رأسي لديك وأوصالي

فها هو يقسم بأنه لن يبرح قاعداً في مكانه، وسيظل كذلك. ونحن نعلم أن حذف لا بعد القسم مع

يبرح كثير في كلام العرب. ولذلك فإنه يقسم بأنه لن يبرح مكانه مهما كانت النتائج. ثم أخذ يطمئنها وهو الكذوب الفاجر، ويؤكد أن ليس في الحي من يتحدث أو يصطلي بنار من البرد:

حلَفتُ لها بالله حلْفةَ فاجرٍ
لَناموا فما إنْ مِنْ حديث ولا صال

وأخذ يقص عليها ما كان من أمر مجيئه، وتحدث عن شوقه وعلته، وعما قيل ويقال في حلقات الرجال، وأنساها خوفها، وقال لنا:

فلما تنازعنا الحديث وأسمحت
هصرتُ بغصنٍ ذي شماريخ ميال
وصرنا إلى الحسنى ورقّ كلامنا
ورضت فذلّت صعبة أي إذلال

هكذا كانت ملاطفته لها: أحاديث جذابة، وأخباراً لذيذة انتهت بأن اقترب كل منهما من الآخر، وضمها إلى صدره المحاط بالزرد، ولكنها لم تشكُ، ووجدت فيه دفء صدره، ونبضات قلبه، فقد كانت متشوقة إليه، ومالت إليه وعليه وكأنها غصن من شماريخ النخل الذي ناء بما كان فيه من تمر فمال. وهكذا مالت صاحبته لما

في صدرها من شوق ولهفة. وفي آخر المحادثة راضت وقبّلت فمه بفعل حديثه الساحر بعد أن كانت صعبة المنال. وكان كل شيء يسير سيراً هيناً لصاحبنا المحب، فهذه المعاينة التي كانت صعبة أسلمت للشاعر نفسها، ثم إن البعل الذي كان يخاف منه امرؤ القيس في أول مغامرته، لم يلبث أن أصبح أمره هيّناً. ونتعرف على تفاصيل الأحداث من هذه الأبيات:

فأصبحتُ معشوقاً وأصبح بعلُها
عليه القَتَام سيئ الظن والبال
يغُطُّ غطيط البكْر شدَّ خناقُهُ
لَيَقتلني والمرء ليس بقتّال
أيقتلني والمشرفي بجانبي
ومسنونة زرق كأنياب أغوال
وليس بذي رمح فيطعنني به
وليس بذي سيف وليس بنبّال
وقد علمت سلمى وإن كان بعلها
بأن الفتى يهذي وليس بفعال

فإذا كان البعل ليس بقتال، فلماذا كل هذا الخوف منه. ولماذا يحمل المغامر المسنونة التي كأنياب الأغوال

والرجل ليس بذي رمح طويل، ولا بذي سيف أو نبل. لا بد من أن هناك أسباباً أخرى قوية للخوف عند زيارة الأحبة. وإننا نترك كشف تلك الأسباب للقارئ. وعلينا أن نتذكر عند الحديث عن امرئ القيس بأنه كان جاهلياً، وكان فصيحاً بليغاً. وكانت أعماله في كثير من الأحيان تختلف عما أتى به الإسلام من مُثُل أخلاقية، وفضائل إنسانية.

ومن بين الذين كانوا يهوون زيارات الحبيبات أعشى قيس، وهو رجل ضعيف البصر منذ صغره. ويدلنا على ضعف بصره هذا الاسم الذي أطلق عليه. وكان الأعشى لا يرى إلا القليل، ولكنه مع ذلك أدلى بدلوه في الزيارات. وكانت الفتاة التي يزورها تدعى هريرة، أو ربما أطلق عليها هذا الاسم لإبعاد الشبهات عنها، وكانت هذه الفتاة ثقيلة الأرداف، بطيئة الخطو، نحيلة الخصر، مكتزة لحماً وشحماً وهي:

غراء فرعاء مصقول عوارضها

تمشي الهوينى كما يمشي الوجي الوحل

مما يدل على أنها مليئة بما لذ وطاب مما لا يوافق عليه الطب الحديث من كولسترول وتوابعه. دعونا

نتلصص عليه ـ ولا أقول نتجسس حتى لا نقع فيما لا نريد. فالأعشى يقول لنا:

قالت هُريرة لما جئتُ زائرها
ويْلي عليك وويلي منك يا رجل

فالمفاجأة كانت سارة للمحبوبة، ولكنها مخيفة تماماً لما كانت مثل هذه المفاجأة مع بقية الصويحبات اللاتي زارهن أحباؤهن على غفلة من الرقباء، ووضعوهن في مأزق حرج. وكان الشعراء غير مسؤولين عما يفعلون، كما كان على الصويحبات أن يحتلن على عدم الكشف عن رعونة أصدقائهن. والواقع فإن قصر نظر الأعشى لم يتركه يتدبر الأمور من قبل فيضرب الموعد قبل الحضور. ومن يدري فلربما عَنَّ له في تلك الساعة أن يزور هريرة التي فوجئت بظهوره وهو يدب على الأرض. ولعله كان يعرف أين يختبئ عن العيون إذ ليس هناك مكان أفضل من أن يقف خلفها فتغطيه بجسمها الفخم الضخم الذي يشبه قامة صاحبة عمرو ابن كلثوم التي كانت:

تريك إذا دخلت على خلاء
وقد أمنَتْ عيون الكاشحينا

ذراعَيْ عَيْطل أدماء بكرٍ
يرنُّ خشاش حلْيهما رنينا
ومأكمةً يضيق البابُ عنها
وكشحاً قد جننتُ به جنونا

فكلا الحبيبتين منتفخة الأرداف، صغيرة الخصر. ومما يثير العجب أن يقدم رجل مثل الأعشى قصير النظر على زيارة النسوة الأحرار، وتعريضهن لما لا يليق.

وكثيراً ما كنت أعجب من المتنبي وهو يقول في إحدى زياراته:

متى تزر قوم من تهوى زيارتها
لا يتحفوك بغير البيض والأسل

وبالطبع فإن المتنبي يجب ألا يتوقع غير ذلك، أم ترى أنه يريد أن يقول له أهل حبيبته: تفضل يا سيدي، وزر من تهوى زيارتها، وسنقدّم لك الطعام والشراب والثريد والقهوة، بل وساندوتشات القرن العشرين. إن المتنبي في هذه الزيارة أخطأ، وقد تعلم منها درساً جعله ينأى بنفسه عن مثل هذه المغامرات التعسة.

وللشاعر الكاتب الفيلسوف المدقق الباحث العقاد

حديث في الزيارات. وهو أسعد حالاً من شعرائنا الذين تحدثنا عنهم لأنه لم يقم بزيارة الحبيب، بل إن الحبيب هو الذي فاجأه بالزيارة على ما يبدو. وكما جنت صويحبات شعرائنا بجسارة الشعراء، كذلك جنت صاحبة العقاد بالجنون الذي أصابه من تلك الزيارة التي كانت على غير موعد. وقص علينا قصته:

قال:

قال لي لما عراني فرحي
بجنون أكذاك الشعراء
قلت فانظر يا حبيبي عجبا
كيف بالحب يجن العقلاء

ورأيته قد بز الأولين والآخرين في هذا المضمار. ولا أعرف أين كان هذا اللقاء، ولكنني أعلم أنه طلب بعض المطالب ويده ممدودة قائلاً لحبيبته:

هات خديكَ وجيداً وفماً
طال والله بنا عهد اللقاء

أما عنترة وعن زياراته الأخرى التي ذكرها في شعره فقد كانت غاية في الحفاظ على المثل الأخلاقية، وكم هي تنم عن حسن معشر. فهو ليس بالفتى

الانتهازي فيما يتعلق بالنساء، ولا رغبة له في الاتصال بهن من وراء ظهور بعولتهن فيما عدا تلك المرة التي ذكرها في معلقته. وكانت المعلقة قد قيلت في مجال فخر. وكان يتحدث مع أحد رفقائه عندما أراد أن يفتخر بأفعاله الكريمة، وسجاياه الجليلة، وبفروسيته وشجاعته. ولم يكن عنترة من أولئك الفتية العابثين الذين يبحثون عن العلاقات الغريبة مع نساء أحياء العرب. وكان أن قال في إحدى المناسبات:

ما اشتمتُ أنثى نفسها في موطن
حتى أوفّي مهرها مولاها
أغشى فتاة الحي عند حليلها
وإذا غزا في الجيش لا أغشاها
إني امرؤ سمح الخليقة ماجد
لا أتبع النفس اللجوج هواها

فعنترة يظهر لنا في كلماته هذه أنه لا يراود الفتيات ابتغاء إشباع النزوات. ولكن إذ أعجبته الفتاة دفع مهرها لولي أمرها وتزوجها. كذلك نراه يزور المرأة المتزوجة فقط عندما يكون زوجها معها في الدارة أما إذا غاب زوجها في غزوة من الغزوات التي تقوم بها عصابات القبيلة، فإنه يتوقف عن مثل تلك الزيارات التي

إنما كان يقوم بها صلة للرحم. أما في غياب الزوج فلا زيارة هناك بسبب سماحة أخلاقه. وكانت هذه الخلال الكريمة من أهم الأسباب التي جعلت رواة الشعر في العصر الإسلامي يقبلون على شعر عنترة، ويجدون متعة في مثله العليا التي لم يكن ليجدوها في شعر غيره من الشعراء، بل إنهم كانوا ينظمون شعراً أخلاقياً ويهدونه لعنترة فيصبح من الشعر المنحول.

obeikandl.com